إسهامات عبد الحميد بن باديس في حماية الهوية الوطنية وتعزيز مقوماتها

Abdelhamid Ben Badis's contributions to protecting national identity and strengthening its components

د.أمال بن صافي
المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، a.bensafi@cu-maghnia.dz
أ.د.فتيحة بلحاجي
المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، f.belhadji@cu-maghnia.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2025/ 07 /23	2025 / 08 / 01	2025 / 09 / 01

مُلخّص البَحث

يعدّ عبد الحميد بن باديس (1889–1940) رائداً في حماية الهوية الوطنية الجزائرية في ظل الاستعمار الذي كان يسعى إلى محو مقومات الشعب. فقد أسس الجمعية الدينية للإصلاح والنادي الثقافي والنشرات التربوية لتكوين الأجيال على أسس إسلامية ووطنية، مع التركيز على اللغة العربية والثقافة الوطنية، وتوفير التّعليم الحديث ضمن سياق يخدم الذاكرة الجماعية، ويعزّز التمسّك بالهوية الأصلية. كما أنّه له دور محوري في نشر الوعي بأهمية التضامن والانتماء للوطن، ومحاربة محاولات التفرقة والطمس الثقافي. يهدف هذا المقال إلى إبراز تلك الإسهامات التنويرية التي كان لها الأثر البالغ في تكوين الوعي الجماعي، وتوفير أسس صلبة لبناء شخصية وطنية قوية قائمة على القيم الثقافية والحضارية الأصلية في عصر التّحديات.

الكلمات المفاتيح: عبد الحميد بن باديس، إسهامات، الهويّة الوطنية، المقوّمات.

Abstract

Abdelhamid Ben Badis (1889–1940) is considered a pioneer in protecting Algerian national identity under French colonialism, which sought to erase the people's cultural foundations. He established the Religious Association for Reform, the Cultural Club, and educational journals to prepare generations based on Islamic and national principles, with a strong emphasis on the Arabic language, national culture, and modern education that serves collective memory and strengthens attachment to the original identity. He also played a pivotal role in spreading awareness about the importance of solidarity and belonging to the nation, and in resisting attempts at division and cultural erasure. This article aims to highlight these enlightening contributions, which had a significant impact on shaping collective consciousness and laying a strong foundation for building a robust national character anchored in its cultural and civilizational values in the era of challenges.

keywords: Abdelhamid Ben Badis, contributions, national identity, components

1. مقدمة:

عاشت الجزائر منذ احتلالها سنة 1830 تحت وطأة استعمار فرنسي شرس لم يكتفِ بالهيمنة السياسية والاقتصادية، بل سعى بكل الوسائل إلى اجتثاث الهوية الوطنية للشعب الجزائري. اعتمد الاستعمار سياسة "التمسّخ الثقافي" من خلال فرنسة التعليم، وإقصاء اللغة العربية من المؤسسات الرسمية، ومحاربة الشعائر الإسلامية، ونشر الثقافة الفرنسية باعتبارها بديلاً حضاريًا. كما تم الترويج لفكرة أن الجزائر جزء من "فرنسا ما وراء البحر"، في محاولة لطمس الانتماء العربي الإسلامي للجزائريين. في هذا السياق القاتم، برزت الحاجة إلى قادة ومصلحين ينهضون بمهمة الدفاع عن الهوية الوطنية، وكان من أبرزهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي تبنّى مشروعًا إصلاحيًا شاملاً هدفه إعادة بعث مقومات الشّخصية الجزائرية الأصيلة.

يُعدّ الشيخ عبد الحميد بن باديس من أبرز أعلام النهضة والإصلاح في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد برز اسمه في مرحلة حاسمة من تاريخ البلاد، حين كانت الهوية الوطنية مهددة بالانمحاء تحت وطأة الاستعمار الفرنسي. جمع بن باديس بين العلم والعمل، فكان عالمًا في الدين، ومصلحًا اجتماعيًا، ومفكرًا وطنيًا حمل على عاتقه مسؤولية إحياء الشخصية الجزائرية في أبعادها اللغوية والدينية والثقافية. لم يكن نضاله سياسيًا تقليديًا، بل اعتمد على الإصلاح التربوي والديني والثقافي كأساس لبناء وعي جماعي، وقد استطاع من خلال خطبه، ومقالاته، ومدارسه، وتأسيسه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أن يشكل قوة فكرية وشعبية واجهت الاستعمار بأسلوب سلمي وفعّال، ممهّدة لبعث الروح الوطنية في نفوس الجزائريين.

يهدف هذا المقال إلى إبراز دور عبد الحميد بن باديس في حماية الهوية الوطنية الجزائرية في ظل محاولات الاستعمار الفرنسي محو مقومات هذه الهوية وتفريغها من محتواها الثقافي والحضاري، بالإضافة إلى ذلك، يسعى المقال إلى تسليط الضوء على إسهاماته التنويرية في نشر الوعي الثقافي والوطني وتكوين شخصية جزائرية متمسّكة بأصالتها وهويّتها الجماعية. ويطمح المقال أيضاً إلى استخلاص الدروس المستفادة من تجربة ابن باديس في الدفاع على الهوية الوطنية وتوظيف تلك الدروس في بناء مستقبل يستند إلى الإرث الثقافي والحضاري للشعوب في مواجهة التحديات المعاصِرة.

وتمثّلت إشكالية هذا الموضوع في كيف ساهم عبد الحميد بن باديس في حماية الهوية الوطنية الجزائرية وتعزيز مقوماتها؟

2. مفهوم الهوية الوطنية :

تعدّ الهوية الوطنية جزءًا أساسيًا من كيان أيّ مجتمع، فهي تلك الرابطة التي تجمع أبنائه حول انتمائهم إلى وطن واحد. هذه الهوية ليست مجرد شعارات، بل هي شعور عميق بالانتساب والاعتزاز بأرض الأجداد، بتاريخها وثقافتها وقيمها الإنسانية. وتكتسي أهمية بالغة نظراً لدورها في تحقيق التلاحُم والوحدة الوطنية، وفي حماية الشعب من محاولات الذوبان والطمس الثقافي في عالم يتسع للتغير. بالإضافة إلى ذلك، تسهم الهوية الوطنية في بناء شخصية قوية للمجتمع، تساعده على مواكبة التحدّيات والحفاظ على تراثه وهويته في آن واحد.

1.2.تعريف الهوية الوطنية ومكوناتها (الدين، اللغة، الثقافة، التاريخ):

تتشكّل الهويات الوطنية ضمن سياق تاريخِيّ وثقافيّ ممتد عبر الزمن، حيث تتبلور بسبب التجارب الإنسانية الجماعية التي يمر بها الشعب. وترتكز هذه الهويات على مقوَّمات أساسية تكوّن ملامح التميّز والانتماء لديه. يتصدّر هذه المقوَّمات الدين بما يغرس القيم والأخلاق في النفوس، بالإضافة إلى اللّغة التي تنقل الإرث الثقافي والذاكره الجماعية، كذلك الثقافة التي تتضمن التقاليد، والعادات، والفنون، بالإضافة إلى التاريخ الذي يوثّق محطات الكفاح والنضال التي عاشها الشعب على مدار العصور.

1- الهويّة لغة:

إذا رجعنا إلى المعجم الوسيط في تعريف لفظة الهويّة نجدها تعني "حقيقة الشيء أو الشّخص التي تميّزه عن غيره"[1] يقدّم هذا التعريف للهوية تصورًا بسيطًا لكنه عميق في دلالته، إذ يركّز على الجوهر الفريد الذي يجعل من كل كيان – سواء أكان فردًا أو جماعة – مختلفًا ومميزًا عن سواه. فالهوية ليست مجرد سمات ظاهرية أو انتماءات سطحية، بل هي جوهر ثابت أو متحوّل يكمن في الداخل، ويشكّل البصمة الخاصة التي لا تتكرر. إلا أن هذا التّعريف-على إيجازه- يغفل عن الطابع الديناميكي والتفاعلي للهوية، فهي ليست مجرد "حقيقة" ثابتة، بل بناء اجتماعي وتاريخي يتأثّر بالزمان والمكان والتجربة. فالفرد أو الجماعة قد يمرّ بتغيرات تُعيد تشكيل هويته من جديد، دون أن يفقد ذلك التميز. لذلك، يُمكن اعتبار هذا التعريف نقطة انطلاق لفهم الهوية، لكنه يحتاج إلى توسيع يشمل بعدها التاريخي، الثقافي، والنفسي، لاحتواء تعقيداتها وتحوّلاتها.

2- أمّا **اصطلاحا:** "يرتبط مفهوم الهوية بتعارف جماعة معينة على أنها مجموعة متجانسة دينيا أو قوميا محليا أو مهنيا، فهي وعي بالذات والمصير التاريخي الواحد من موقع الحيز المادي والروحي، ويمكنها أن تحدد توجهات الناس وأهدافهم، وتدفعهما إلى العمل معا في تثبيت وجودهم والمحافظة على منجزاتهم وتحسين وضعيتهم في التاريخ"[2]

ونقصد بهذا المفهوم أن الهوية ليست مجرد فكرة مجردة، بل هي إحساس جماعي مشترك يجمع أفراد جماعة معينة، سواء كانوا ينتمون إلى نفس الدين، أو القومية، أو حتى المهنة أو المنطقة. هذا الإحساس المشترك يجعلهم يشعرون بأنهم جماعة واحدة، تجمعهم نفس القيم، والتاريخ، والمصير. فالهوية هنا تُبنى من خلال الوعي بالذات: من نحن؟ من أين جئنا؟ وما هو موقعنا في العالم، ماديًا (كالأرض) وروحيًا (كالإيمان والثقافة)؟

والهوية، بحسب هذا التصور، ليست مجرد انتماء عاطفي، بل هي أيضًا قوة دافعة، تحفّز الناس على العمل معًا للحفاظ على وجودهم، والدفاع عن حقوقهم، وتحقيق التقدم. فهي بذلك تؤثر على تفكيرهم وسلوكهم وأهدافهم. هذا ما يجعل للهوية دورًا أساسيًا في التاريخ، لأنها تحرك الجماعات نحو التغيير أو المقاومة أو البناء الجماعي.

2.2. الهوية الوطنية الجزائرية من منظور عبد الحميد بن باديس:

شكّلت الهوية الوطنية الجزائرية عبر التاريخ محورًا أساسيًا في مقاومة الاستعمار الفرنسي الذي سعى بكل وسائله إلى طمس مقوّمات الشخصية الجزائرية من لغة ودين وثقافة. وفي هذا السياق برزت شخصيات إصلاحية

كان لها دور كبير في الدفاع عن هذه الهوية، وفي مقدمتها الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد النهضة الفكرية والدينية في الجزائر. فقد عمل من خلال مشروعه الإصلاحي على بعث الوعي الوطني، والتمسك بالعناصر التي تُكوّن الذات الجزائرية، مؤمنًا بأن الحفاظ على الهوية هو السبيل الأول لمواجهة الاستعمار وبناء مستقبل الأمة.

يقول عبد الحميد بن باديس "لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم ولن يصلح هذا التعليم إلاّ إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته"[3]

يوضح لنا عبد الحميد بن باديس أنّ صلاح الأمة الإسلامية يبدأ بصلاح علمائها .فالعلماء هم قادة الفكر والتوجيه الروحي للمسلمين. ولكن صلاح العلماء نفسه مرهون بصلاح تعليمهم؛ أي أن نوعية المعرفة والتربية التي يتلقونها هي الأساس. وأخيرًا، لا يمكن لهذا التعليم أن يصلح ويؤتي ثماره المرجوة إلا إذا عاد إلى المنبع الأصيل: التعليم النبوي الشريف، سواء في جوهره ومحتواه (المادة والموضوع)، أو في أسلوبه وطريقة تقديمه (الشكل والصورة). بعبارة أخرى، يرى هذا القول أنّ الطريق إلى نهضة المسلمين يمر عبر إصلاح شامل للتعليم الديني ليصبح متوافقًا مع المنهج النبوي الأصيل.

3. المكونات الأساسية للهوية الجزائرية في رؤية عبد الحميد بن باديس:

تُعد الهوية الجزائرية محورًا أساسيًا في فكر العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي كرس جهده لتحديد مكوناتها وصياغة رؤية متكاملة لترسيخها في وجدان الأمة. لم تكن هذه الهوية مجرد انتماء جغرافي أو عرقي، بل كانت بناءً شاملاً يقوم على أسس راسخة أرادها ابن باديس درعًا واقيًا للجزائر ضد محاولات الطمس والاستلاب، ومنارةً تهدي الأجيال نحو استعادة أمجادها وتقرير مصيرها.

1.3. الدين:

يعدّ الإسلام الركيزة الأساسية للهوية الجزائرية، فهو ليس مجرد عقيدة فردية، بل هو المكون الحضاري والثقافي الذي شكل وجدان الأمة الجزائرية عبر تاريخها الطويل. وقد رأى ابن باديس في الإسلام القوة الدافعة للمقاومة ضد الاستعمار، والمصدر الذي تستمد منه الأمة قيمها وأخلاقها ووحدتها "فالإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده" [4]فعبد الحميد ابن باديس يؤكد على أن الإسلام ليس نتاجًا بشريًا أو فلسفة أرضية، بل هو وحي إلهي نابع من حكمة الله تعالى وعلمه المطلق. والهدف الأسمى من هذا الوحي هو هداية الناس؛ أي إرشادهم إلى طريق الحق والخير والصلاح في جميع جوانب حياتهم، سواء في علاقتهم بالخالق، أو بأنفسهم، أو بالمجتمع، أو بالكون. هذا يعني أن الإسلام يقدم نظامًا متكاملًا يضمن للإنسان الفلاح في الدنيا والآخرة، فهو بمثابة نور يضيء الدروب المظلمة، ومنهج يضع أسس العدل والرحمة والسلام في حياة الفرد والمجتمع.

إذ يُعدّ الدين من الركائز الروحية التي تُجسّد ثقافة الشعوب وتعكس قيمهم وتقاليدهم.فهو لا يكتفي بتأطير الجانب الروحي فحسب، بل يُعدّ عنصرًا أساسيًا في تثبيت الهوية، خاصة في مواجهة التحوّلات والتحديات التي قد تهدد استقرار الوطن. كما يُساهم الدين في إبراز الخصوصيات التي تميز شعبًا عن آخر، ويمنح كل أمة طابعها الفريد عبر التاريخ[5]. ومن هنا يمكننا أن نقول بأنّه لا وجود لهويّة حقيقيّة بدون مرجعيّة دينية.

فلقد احتلّ الدين الإسلامي موقعًا مركزيًا في فكر عبد الحميد بن باديس، إذ عدّه الركيزة الأولى للهوية الجزائرية وأساس نهضة الأمة ومقاومتها للاستعمار .فقد كان يرى في الإسلام دينًا شاملًا للحياة، ينبني على التوحيد،

والعقل، والعمل، والأخلاق. واعتبر أن الاستعمار لم يستهدف الأرض فقط، بل استهدف أيضًا العقيدة، فعمل على نشر الجهل والخرافة وتهميش التعاليم الإسلامية الصحيحة. ومن هذا المنطلق، جعل ابن باديس من إصلاح العقيدة ونشر الوعي الديني النقي مهمة أولى في مشروعه الإصلاحي، عبر التعليم، والخطابة، والصحافة، ساعيًا إلى تحرير العقول وربط الإنسان الجزائري بدينه الحقيقي، باعتباره مصدر القوة، والانتماء، والكرامة.

2.3. اللغة:

اللغة العربية هي وعاء الفكر والثقافة والتاريخ الجزائري. لقد شدد ابن باديس على أهمية الحفاظ على اللغة العربية وتدريسها، كونها الرابط الذي يجمع الجزائريين ويحفظ لهم أصالتهم وتراثهم، ويحميهم من الذوبان في الثقافة الاستعمارية. وقد شدّد على أن اندثار اللغة العربية يعني بالضرورة اندثار الدين الإسلامي، معتبرًا أن التعليم بها ونشرها يُعدّ وسيلة فعالة في نشر الإسلام وترسيخ القيم الأخلاقية.

ويؤكّد هذا قوله" واعلموا أنّ لا بقاء للإسلام إلاّ بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وأنّ لا تعليم له إلاّ بتعليم لغته"[6]

رأى ابن باديس أن اللّغة العربية تُشكّل أحد الأسس الجوهرية في تكوين الشخصية الوطنية الجزائرية، وقد أولت جمعية العلماء المسلمين اهتمامًا كبيرًا بإحيائها والدفاع عنها. فالعربية ليست مجرد وسيلة تواصل، بل هي الحبل المتين الذي يصل الشعب الجزائري بعقيدته الإسلامية، وتاريخه العريق، وموروثه الثقافي، كما تعزّز انتماءه إلى الفضاء العربي الأوسع. فهي تعدّ" لغة الدين، لغة القومية، ولغة الوطنية المغروسة، إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسالفنا وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا [7]» فهي تعكس وعيًا عميقًا بأهمية اللغة كجسر يربط الأجيال ببعضها عبر الزمن. فهي ليست مجرد أداة تواصل، بل وعاء للهوية الحضارية والدينية والوطنية، ومرآة للروح الجماعية. فاللغة التي نحملها ونعبّر بها عن ذواتنا، هي ذاتها التي حملها أجدادنا ونسجوا بها رؤاهم للعالم، وهي ما سيمكن أحفادنا من فهمنا واستيعاب إرثنا. لذلك، فإن التمسك بهذه اللغة هو تمسك بالامتداد الزمني والانتماء الوجداني إلى أمة لها جذور ضاربة في التاريخ. ومن هنا، تغدو اللغة معيارًا لقياس مدى وفائنا لهويتنا، ولحجم المسافة أو القرب بين حاضرنا وماضينا، ومستقبل أبنائنا.

وعليه؛ يمكننا القول بأنّ مكون اللغة العربية أحد الركائز الأساسية في فكر عبد الحميد بن باديس، إذ اعتبرها ركنًا جوهريًا من أركان الهوية الوطنية الجزائرية، إلى جانب الدين والتاريخ .فقد رأى في اللغة العربية الوعاء الذي يحمل قيم الأمة وروحها، والرابط الذي يصل الحاضر بالماضي، ويصون الشخصية الثقافية من الذوبان في مشاريع الاستعمار. لذلك، جعل من إحياء اللغة العربية وتعليمها مهمة مركزية في مشروعه الإصلاحي، من خلال التعليم، والصحافة، والوعظ، ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مؤكدًا أن لا نهضة لشعب بلا لغته، ولا بقاء لأمة من دون لسانها الأصلي.

3.3. الترابط الوطنـــــي:

يمثل الوطن الجزائري بحدوده الجغرافية المحددة، الانتماء الأرضي الذي يجمع الأمة. وقد أكد ابن باديس على أن الجزائر هي وطن الأمة الجزائرية المستقل بذاته، وليست جزءًا من فرنسا، وهو ما كان ردًا مباشرًا على

محاولات الاستعمار الفرنسي طمس الهوية الجزائرية وضم الجزائر لفرنسا، فيقول "الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء"[8].

يرى عبد الحميد ابن باديس بأنّ شرف الوطن هو من شرف الانسان بحيث أنه يقول: " إنما ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي ومصالح الحاضر وآمال المستقبل والنسبة للوطن توجب علم تاريخه والقيام بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه وسمعته أبنائه فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه".[9]

تكشف هذه الفقرة عن التصور العميق لعبد الحميد بن باديس لمفهوم الانتماء الوطني، بوصفه انتماءً قائمًا على الوعي والتاريخ والمستقبل المشترك، لا على مجرد العيش فوق تراب الوطن. فهو يرى أن الانتماء الحقيقي للوطن لا يتحقق إلا لمن جمعته مع أبناء وطنه ذكريات الماضي، ومصالح الحاضر، وآمال المستقبل، ما يعكس فهماً للوطن كهوية ممتدة في الزمن، لا كحدود جغرافية فقط. ويربط ابن باديس هذا الانتماء بالمسؤولية، مؤكّدًا أن من ينتسب للوطن لا بد أن يعي تاريخه، ويساهم في نهضته العلمية والاقتصادية والعمرانية، ويصون سمعته في الداخل والخارج. ويبلغ الطرح ذروته في البُعد الأخلاقي، حين يُقرن شرف الإنسان بشرف وطنه، فيعبّر بوضوح "لا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه"، وهو ما يرسّخ مبدأ أن الكرامة الفردية لا تنفصل عن الكرامة الجماعية، وأن خدمة الوطن والدفاع عنه هي من أنبل صور الشرف الإنساني.

4.جهود عبد الحميد ابن باديس في ترسيخ الهوية الجزائرية:

كانت الهوية الوطنية الجزائرية في صميم الاستهداف الاستعماري الفرنسي، الذي بذل جهوده لطمس معالمها الدينية واللغوية والثقافية. وفي مواجهة هذا الخطر، لمع نجم عبد الحميد بن باديس كرمز من رموز الإصلاح واليقظة الفكرية، حيث كرّس حياته لصون شخصية الأمة الجزائرية من التفكك والذوبان. وقد أدرك منذ وقت مبكر أن الحفاظ على الوطن لا ينفصل عن صيانة هويته، فانطلق يعمل من خلال التعليم، وبثّ الوعي، وتقويم العقيدة، وإحياء مقوّمات الانتماء العربي الإسلامي، ليُقيم بذلك جدارًا ثقافيًا صلبًا في وجه سياسات الفرنسة والاقتلاع.

عبد الحميد ابن باديس رأى أن الهوية الأصلية للجزائريين هي الهوية العربية الإسلامية، فعمل على دفع الجزائريين للحفاظ على هذه الهوية من خلال:

- ✓ **تعزيز اللغة العربية:** التي كانت تعدّ من أهم العناصر في فكر ابن باديس لأنّها تعتبر لغة الأم بالنسبة للجزائريين " درسها ابن باديس ودرس تاريخها وآدابها، وعرف الوظائف الحية التي تضطلع بها، والقيم التي تزخر بها، وأدرك بعمق ارتباطها بالإسلام، وبوجدان الإنسان المسلم، لأنها الأداة التي بها يناجي ربه، ويفهم القرآن، ويطلع على حقائق الإسلام والتراث وبها يتواصل مع أبناء جنسه، ويحس بانتمائه القوي إلى أمته، وبأن هذه اللغة جزء من كيانه، وركن من أركان شخصيته "[10] ، تبيّن لنا هذه الجزئيّة المكانة الكبرى التي أولاها عبد الحميد بن باديس للغة العربية في مشروعه الإصلاحي والنهضوي، حيث لم ينظر إليها كمجرد وسيلة تواصل، بل باعتبارها ركنًا جوهريًا في بناء الشخصية المسلمة .فقد وعى ابن باديس بأبعادها المختلفة: الدينية، والثقافية، والحضارية، وأدرك أن اللغة ليست فقط أداة لفهم القرآن ومناجاة الله، بل

هي أيضًا الرابط الذي يوحّد الإنسان بأمته، ويثبّت شعوره بالانتماء والهوية. هذا التصور يُبرز كيف أن ابن باديس كان ينظر إلى اللغة العربية كسلاح مقاومة ثقافية، في وجه محاولات الاستعمار لفرض لغته ومسخ شخصية الجزائري. إنها لغة العقيدة، والتاريخ، والذات الجماعية، ولهذا جعل الدفاع عنها من أولوياته الكبرى، لأنها في نظره ليست لغة فقط، بل كيان وهوية ووجدان.

- ✓ **التأكيد على أهميّة الدين الاسلامي** كقوّة عظيمة لا يستهان بها لأنّ "الاستعمار الفرنسي في الجزائر استعمار صليبي النزعة، فهو منذ أن احتل الجزائر عمل على محو الدين الإسلامي"[11]. وبما أنّ كان عبد الحميد ابن باديس كان ضدّ فكرة الإدماج فقد حاربها بجميع الطرق، واعتمد على الفقه والدين الاسلامي فهو يرى أنّ " القرآن هو كتاب الاسلام وكتاب حكمة، والحكمة من العلم الصحيح والإدراك القويم للحقائق وهو العمل الصالح"[12]، ثم يواصل ويفسّر فيقول: "ففي الفقه في دين الله الكمال العلمي وفي العمل به الكمال العملي....وما كمال الانسان العلمي إلاّ بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم"[13]
- ✓ **الاعتماد على التربية والتعليم:** انطلق ابن باديس في مشروعه الإصلاحي من قناعة راسخة بأن الإصلاح يبدأ من الإنسان، والإنسان يُبنى بالتربية والتعليم، لذلك جعل من التعليم الوسيلة الأولى لتكوين جيل متمسك بدينه، معتزّ بلغته، واعٍ بهويته الوطنية، كان ابن باديس يؤمن بأن العلم والتعليم يمثلان الوسيلة المثلى لإصلاح المجتمع، وإحياء روح الأمة، ومواجهة قابلية الاستعمار، فقد اعتبرهما الأساس الذي يُبنى عليه كل مشروع إصلاحي يهدف إلى تغيير واقع الأمة نحو ما فيه خير البلاد والعباد[14]. أدرك عبد الحميد ابن باديس مبكرًا أن المعركة الحقيقية ضد الاستعمار لا تبدأ بالبندقية فقط، بل تبدأ من العقل والقلم والمدرسة .فقد آمن بأن إصلاح الفرد هو الخطوة الأولى لإصلاح المجتمع، وأن ذلك لا يتحقق إلا من خلال العلم والتعليم الهادفين، القادرين على بناء إنسان واعٍ بدينه، معتز بهويته، مدرك لواقعه، ومؤمن بدوره في التغيير.

كما يتجلى في هذا التصور وعي ابن باديس بما سمّاه مالك بن نبي لاحقًا بـ"قابلية الاستعمار"، أي استعداد المجتمعات الضعيفة لتقبّل الاستعمار بسبب الجهل والتخلف. فكان التعليم بالنسبة لابن باديس سلاحًا لتحرير العقول قبل الأوطان، وأداةً لبعث الأمة من سباتها التاريخي واستعادة مكانتها الحضارية.

بهذا الطرح، يؤكد ابن باديس أن كل نهضة حقيقية لا بد أن تمر عبر بوابة التربية والتعليم، لأنهما الضمانة الوحيدة لتأسيس مجتمع قوي، يقاوم الاستعمار، ويصنع مستقبله بيده.

- ✓ **الوحدة الوطنية:** تمثل أحد الركائز الأساسية في فكر عبد الحميد ابن باديس ونضاله من أجل نهضة الجزائر وحفظ هويتها في مواجهة الاستعمار الفرنسي ومحاولات طمس الهوية الدينية والثقافية للجزائريين.

وقف ابن باديس بحزم في وجه السياسات الاستعمارية التي سعت إلى زرع الفتنة والانقسام بين مكوّنات الشعب الجزائري، من عرب وبربر، بهدف إضعاف وحدته وضرب هويته. وقد أدرك أن التمسّك بالعروبة والإسلام هو السبيل الأنجع لإفشال هذه المخططات، بل إن تلك المحاولات لم تؤدّ إلا إلى مزيد من التلاحم بين أبناء الوطن،

وتعزيز شعورهم بالانتماء المشترك، لقد شكّل هذا الثالوث المتين: الإسلام، والعربية، والجزائر، حصنًا منيعًا لا يمكن لأي عدو اختراقه، وكان الشعار الذي رفعه ابن باديس لبثّ الوعي الوطني وإحياء روح اليقظة في نفوس الجزائريين[15]

تبرز هذه الفقرة وعي عبد الحميد بن باديس العميق بطبيعة السياسة الاستعمارية الفرنسية، التي لم تعتمد فقط على القوة المادية، بل سعت بذكاء إلى تفكيك النسيج الاجتماعي الجزائري بزرع بذور الانقسام بين مكوناته، خاصة بين العرب والبربر، لإضعاف وحدة الصف الوطني. غير أن ابن باديس، بما امتلكه من بصيرة إصلاحية، واجه هذه المخططات بتأكيده على أن الإسلام والعربية والانتماء إلى الجزائر تمثل مرتكزات الهوية الوطنية الجامعة، التي لا تقبل التجزئة. لقد جعل من هذا الثالوث حصنًا رمزيًا ومعنويًا، تلتف حوله كل فئات المجتمع، بغض النظر عن أصولهم العرقية أو الجهوية. وبذلك، لم تكن دعوته للتمسك بالإسلام والعربية مجرد موقف ديني أو لغوي، بل كانت مشروعًا وطنيًا شاملاً لمواجهة التفتيت الاستعماري، وترسيخًا لفكرة أن وحدة الشعب هي السلاح الأقوى في وجه كل محاولات الهيمنة والفرقة. لقد استطاع أن يحوّل أدوات الاستعمار إلى دافع لتعزيز التلاحم الوطني وبثّ روح المقاومة واليقظة.

5.خاتمة:

في الختام، يتبيّن أن عبد الحميد بن باديس قد لعب دورًا محوريًا في حماية الهوية الوطنية الجزائرية، من خلال مشروعه الإصلاحي المتكامل الذي ركّز فيه على إحياء الدين، واللغة، والتاريخ، وبناء الوعي الجماعي عبر التعليم ونشر الثقافة. لقد شكّلت جهوده سدًّا منيعًا في وجه محاولات الاستعمار لطمس الشخصية الوطنية، وأسّست لمسار طويل من المقاومة الثقافية. واليوم، لا تزال أفكاره تحتفظ براهنيتها، وتُعد مصدر إلهام في ظل التحديات التي تواجه الهويات الوطنية في عالم متغير. ومن هنا تبرز الحاجة إلى استلهام رؤيته، وتعزيز الهوية الوطنية عبر الاستثمار في التربية، ونشر الوعي الثقافي، وربط الأجيال بتاريخهم وقيمهم الحضارية، بما يضمن استمرارية الشعور بالانتماء ويحفظ تماسك الأمة ووحدتها.

الهوامش

1 -إبراهيم أنيس و عبد الحليم منتصر، عطية الصواحلي ، حمد خلف الله أمحد، المعجم الوسيط الصادر عن جمع اللغة العربية، القاهرة، 2004، ص 740.

2 سالم لبيض، الهوية : الإسلام، العروبة، التونسة،مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 33.

3 -صالح بوعزة, بعد الهوية والمواطنة في المقاربة التربوية الباديسية، مجلة التنمية البشرية ، العدد 77 سطيف ، ديسمبر2025، ص507.

4 عبد الحميد بن باديس, دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها , الشهاب, ج3,المجلد72, 1356هـ ، ص 725

5 ينظر: عبد الحميد ابن باديس, كتاب الآثار, تحقيق د. عمار طالبي ج9 مجلد 9 شارع باب عزون ص258- 259.

6 محمد لميلي , ابن باديس و عروبة الجزائر , الجزائر عاصمة الثقافة العربية، منتدى سور الأزبكية، 2007، ص750.

7 المجلس الأعلى للغة العربية, دور جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية و أثره في الهوية اللغوية , ج7 , منشورات المجلس, الجزائر 2011، ص722.

8 تركي رابح عمامرة, الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر , المؤسسة الوطنية للكتاب , الجزائر , ط4، ص189.

[9] -تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس، باعث النهضة العر بية في الجزائر المعاصرة، ط2، 2003، ص86.

[10] عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس. ط1، شركة دار الأمّة،برج الكيفان، الجزائر، 1998، ص 105-107.

[11] السعدية بن حامد، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1931 -**1954**م، البعد الثوري في نشاط الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1919- 1954 م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ، 1مارس 2016، ص306.

[12] محمد زرمان، منهج جمعية العلماء في تجديد العقيدة الإسلامية، ص114

[13] أحمد الشرباصي، يسألونك في الدين والحياة، ج1 ،ص9

[14] ينظر: عمار بن مزوز، عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، دار الأمل للنشر طباعة الجزائر، 2010م ، ص164.

[15] عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، مرجع سابق، ص89

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أنيس وعبد الحليم منتصر، عطية الصواحلي، حمد خلف الله أمحد: المعجم الوسيط الصادر عن جمع اللغة العربية، القاهرة، 2004.
2. أحمد الشرباصي: يسألونك في الدين والحياة، ج1 ، دار الجيل، بيروت.
3. البعد الثوري في نشاط الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1919- 1954 م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ، 1مارس، 2016.
4. تركي رابح عمامرة: الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4.
5. سالم لبيض: الهوية الإسلام، العروبة، التونسة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.
6. السعدية بن حامد: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1931 -1954م.
7. صالح بوعزة: بعد الهوية والمواطنة في المقاربة التربوية الباديسية، مجلة التنمية البشرية، العدد 77 سطيف، ديسمبر2025.
8. عبد الحميد ابن باديس: كتاب الآثار، تحقيق: د. عمار طالبي، ج9 ، مجلد 9 ، شارع باب عزون.
9. عبد الحميد بن باديس: دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها، الشهاب، ج3، المجلد72، 1356هـ.
10. عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس. ط1 ، شركة دار الأمّة، برج الكيفان، الجزائر، 1998.
11. عمار بن مزوز: عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، دار الأمل للنشر والطباعة، الجزائر، 2010م.
12. المجلس الأعلى للغة العربية، دور جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية، ج7 ، منشورات المجلس، الجزائر 2011.
13. محمد زرمان: منهج جمعية العلماء في تجديد العقيدة الإسلامية.
14. محمد لميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، منتدى سور الأزبكية، 2007.